

البعء الإجتماعي للحج في نظر الإمام الخميني عليه السلام

أحمد الواسطي

يتمتع الإمام الخميني عليه السلام بفكر وعبقورية ذات طابع تجديدي مستوحى من مبادئ الإسلام الأصيلة. فهو عليه السلام عندما ينظر لمسألة الحج في بعده الاجتماعي ينطلق من هذا المعين المتمثل بأحكام السماء الخالدة، ومن الصعب - بهذه العجالة - الإحاطة بفكر الإمام العملاق.

لقد أصبح الإمام عليه السلام رمزاً إنسانياً عالمياً؛ لأنه كرّس كل حياته وعمره الشريف - الذي ليس ملكاً له - من أجل تغيير الإنسان وتزكيتته من كل أشكال العبوديات وبناءه بناءً إسلامياً جديداً.

موقع النظرية الاجتماعية في الحياة الإنسانية

إن الجوانب الرئيسية لاسلوب وطريقة تعامل النظرية الاجتماعية مع مختلف جوانب الحياة البشرية تتمثل بالمجتمع الإنساني والسلوك الاجتماعي. والجدير بالذكر أن النظرية الاجتماعية هي ما يطرحه الدين على نطاق النظرية الفقهية الدينية.

وتتمتع النظرية الاجتماعية بمخاصية وضع المؤشرات الدقيقة للموازين الاجتماعية في الحكم والسياسة، والقضاء والتعليم، والعائلة، والقانون، والدفاع، والصحة، والتجارة والزراعة، والصناعة... لذا فالمسؤولية الملقاة على عاتق النظرية الاجتماعية كبيرة جداً، ذلك أن جميع العناوين السابقة ستدخل تحت مظلة عنوان كلي هو دراسة السلوك الاجتماعي والمجتمع الإنساني. ومن هنا يتضح ان النظرية الاجتماعية في ظل النظام الإسلامي، تستلهم أفكارها من مبادئ الدين وأحكامه الشرعية ونظامه الأخلاقي^(١).

الإسلام والواقع الاجتماعي للحج

إن الإسلام كنظام عالمي خالد قرّر أحكاماً وقوانين ثابتة لجميع نواحي الحياة الإنسانية. منها ماله علاقة بالخالق البارئ، ومنها ما يرتبط ببني النوع المماثلين في الخلق. ومنها ما يرتبط بأتباع الدين الواحد من سائر المسلمين. والإسلام يربي المسلمين تربية إلهية، ويوجههم نحو صراط العزيز الحكيم من خلال تذكيرهم وإرشادهم إلى صالح الأعمال، قال تعالى: ﴿...قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين* يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾^(٢).

فالقرآن المبين للأحكام والوظائف دعوته عامة لكل الأفراد والجماعات، كما أن النبي محمد ﷺ رسول الله إلى الناس جميعاً. ومن هنا، فالإسلام يدعو الناس جميعاً وبصوت واحد. والمسلمون المعتقدون بالإسلام تتوحد أهدافهم الإسلامية باتجاه واحد وبخطى مترابطة.

وان كل ما رآه الإسلام هدفاً قيماً مقدساً يراه جميع المسلمين كذلك. هذا مع العلم بأن هذه الأحكام والقوانين كالحج مثلاً تبين فيما يتعلق بالمسلمين أهدافاً يهتم بها الإسلام ويركز عليها. وأن العزة والانتصار في حياة المسلمين يترتبان على مدى الالتزام بهذه

الأحكام والقوانين وتحكيمها في مختلف شؤون الحياة اليومية .
وقد أكد الإمام الراحل عليه السلام على «أن جميع الانتصارات والهزائم تنطلق من الإنسان، والإنسان أساس النصر وأساس الفشل، وما يحمله الإنسان من أفكار وتصوّرات هو أساس كل شيء»^(٣).

فالذي يحثّ عليه الإمام عليه السلام بشكل متواصل لبلوغ الهدف هو مسألة التغيير الذاتي والنفسي للفرد والمجتمع على حدّ سواء انطلاقاً من مبادئ الإسلام ومفاهيمه الكلية الشاملة «إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم»^(٤).

الإمام والمسيرة التاريخية

إنّ حركة التاريخ في فكر الإمام عليه السلام، تركز على مبدأ وحدة الأمة، وأيّ أمر من شأنه إيجاد العقبات، أو تفريق الأمة يكون مرفوضاً إسلامياً. فالإمام عليه السلام شخصّ القاسم المشترك والأرضية المشتركة، التي يجب أن تقف عليها الأمة في مواجهة قوى الاستكبار العالمي.

فهو عليه السلام ينظر إلى الحج باعتباره الساحة التي يمكن فيها تعرية النفاق في الأمة . وفيما يتعلّق بالانقسامات بين المسلمين، فقد استطاعت الطائفية أن تنخرّ جسم عالما الإسلامي طيلة قرون عديدة .

وكان نتيجة هذه الظاهرة والانقسام الكبير بين السنّة والشيعّة، أن تسود العالم الإسلامي حالة الضعف . وقد كان ميسوراً على الإمام الاستفادة من هذا الوضع، إلاّ أنه بشخصيّته الإسلامية الفدّة، بقي فوق كلّ هذه الانقسامات، بل قام بوظيفته الإسلامية بتوحيد صفوف جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم، من خلال نظرتة الإسلامية الشاملة .

فالإمام الراحل عليه السلام لا يمكن تحجيمه بأي شكل من الأشكال، أو تحديده ضمن مدرسة فكرية إسلامية . كما أنّ الحجّ بالنسبة للإمام يمثّل أقصى درجات التعبير عن قوّة الإسلام .

الحجّ في الفكر الاجتماعي الشمولي للإمام

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٥).

تشغل أهمية البعد الاجتماعي للحجّ حيزاً كبيراً في فكر الإمام الخميني عليه السلام لما له من دور تغييري على الصعيد العالمي. ذلك أنّ المسلم في الحج يدرك بشكل واضح وجليّ أنه يعيش في جسم الأمة، وأنّه جزء لا يتجزأ من هذه الأمة الكبيرة. كما يشعر بأنّ كيانه مرتبط بكيانها، وأن المسلمين جميعاً ذمّتهم واحدة يسعى بها أدناهم.

فهذا الأذان والإعلان العام للحج من قبل خالق الكون والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ثمّ التجاوب البشري من مختلف بقاع الأرض يمثّل التواجد الواقعي للأمة الإسلامية. ومن هنا جاء نداء الإمام عليه السلام «يا مسلمي العالم، يا مستضعفي الأرض هيا إلى النظام الذي جاء من قبل الله تعالى لنموّكم وتكاملكم ولسعادتكم في الدنيا والآخرة، ولإزالة الظلم وحقن الدماء ونصرة المظلومين في العالم...»^(٦).

فالحج في رؤية الإمام العميقة تترتب عليه الأهداف الإسلامية الكبرى لإزالة الظلم ونصرة الحق.

لذا يتّضح أنّ الحجّ حركة إلى الله من خلال الاندكاك والذوبان مع الجماعة الإسلامية ومن مختلف الأجناس والألوان والأصقاع. فالوسط الاجتماعي يعتبر المحكّ الذي من خلاله يستطيع الفرد المسلم تهذيب «الأنا» وتجاوز الوقوع في دائرة الإغراء، أو الإثارة. ذلك أنّ المسلم إسلام محسّد لتحقيق أهدافه وطموحاته وتجسيدها في حيز الواقع. علماً بأنّ هذه الأهداف تؤثر في إيجاد علاقة اجتماعية بين كلّ المسلمين، فإذا كان كل مسلم بصدد تحقيق هذه الأهداف، فهو يكون بصدد بناء مجتمع عالمي صالح على ما يدعو إليه إسلامه.

لقد أكّد الإمام عليه السلام على التحرك الجماهيري الإسلامي في مختلف بقاع العالم

الإسلامي، وبقي وفيماً لشعاراته الواضحة حتى انتهاء حياته، وأوصى بها بعد وفاته.

وكم كان يتألم ﷺ حينما يرى هذا التخاذل والتراجع المستمر، فهو ﷺ كان يحذّر المسلمين من القعود والوقوف مكتوفي الأيدي إزاء ما يجري حولهم.

لقد سعى الإمام ﷺ بكل ما أوتي من قوّة من أجل ربط الإسلام بواقع المسلمين الحقيقي، حيث قال: «البعثوا الإسلام عن واقع الحياة الاجتماعية... فقطعوا رأسه وسلّموا لنا بقيته، وجزّونا إلى النصفين: نصفه اليوم، وما دام المسلمون على هذه

الحالة فلن يتعدوا وسببها هذا» (٨) وعلى صعيد العمل الإسلامي، فإنّ الإمام ﷺ كان يحرص على إثارة الشكوك حول الإسلام وعلميته وأنّ المسلمين لا يهتمون بوضاه الاجتماعية من خلال ما أثاره من أسئلة تعاريفية، حيث يقول ﷺ: «ووهبوا لهم بعد ذلك النافس أن يمدوا اللّون للذين هم أن يتدخلوا في الشؤون التي هي من أمور الدنيا، وأن يفتروا على الله وأمره ما يشاءون... ومن المومنين من أن بعضنا صدق ببعض الأنباط...»

فإنّ ما كانت تحلم به نفوس المستعمرين» (٨) ومن هنا فإنّ الإمام ﷺ كان يحرص على إثارة الشكوك في المناسبات، يحاول إماطة اللثام عن مكر المأكرين، وتوعية الأمة على أهمية الأهداف الاجتماعية في تبليغ الرسالة الإسلامية.

فهو ﷺ يشير مراراً وتكراراً إلى أنّ «كثيراً من الأحكام العبادية تصدر عنها معطيات اجتماعية...» (٩).

فصلاة الجماعة مثلاً واجتماع الحج والجمعة تؤدي -بالإضافة إلى ما بها من آثار خلقية وعاطفية- إلى توحيد كلمة المسلمين باتجاه الأهداف المطلوبة.

كما أشار ﷺ موضحاً آثار الحج الاجتماعية قائلاً:

«استحدث الإسلام هذه العواطف، وندب الناس إليها، وألزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية وتعم العواطف الأخوية، والتعارف بين الناس وتنضج الأفكار وتنمو وتتلاقح، وتبحث المشاكل الاجتماعية... وحلولها»^(١٠).

لقد استوحى الإمام ﷺ هذه المعطيات من القرآن وسنة الرسول الأكرم ﷺ في تكريس الوظيفة الاجتماعية للحج الإسلامي، وتعرية كل المحاولات الجاهلية لتشويه هذه الشعيرة، وإبعادها عن أهدافها الحقيقية. فعندما نمعن النظر في مسألة الطواف والسعي وغير ذلك من شعائر الحج الإبراهيمي نلاحظ أن هناك انصهاراً وذوباناً ضمن كتلة بشرية واحدة تسودها القوة والفاعلية، وتموت فيها «الأنا» ولا نجد أي مجال للفردية، بل الحضور كل الحضور للجماعة المسلمة، حيث يشعر الفرد المسلم بأن هذه الأمة لم تعد أمة مجزأة ومشتتة العرى والأوصال، وإنما تتمتع بكيان واحد ومصير مشترك. ذلك أن المسلمين في الحج يتحولون إلى أمة واحدة، عندما يتحركون باتجاه واحد، ويلبّون تلبية واحدة، ويلبسون لباساً واحداً، ويطوفون حول كعبة واحدة، ويسعون في اتجاه واحد، وفق مناسك مشتركة.

لذا من أجل هكذا نوع من الارتباط والتلاقي، تم إعداد الإنسان ليكون اجتماعياً. ذلك أن الإنسان من خلال هذا اللقاء والارتباط بالمجتمع يصل إلى درجة من النضج والرقي في سلّم الكمال الذي أعده الله تعالى له.

فالإحرام من الميقات تعبير عن الذوبان في المجموع. والطواف حول البيت يمثل الانجذاب إلى الله تعالى والتوجه نحو الحياة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١١).

ومن هنا يتضح أن الأمة من خلال مناسك الحج تعيش تجربة التوحيد، والارتباط بالله والمعاشة الفعلية مع الأمة - بنظر الإمام الراحل - في جو يسوده

الودّ والاخاء بعيداً عن روح الإثارة والفوضى والمجدل .
 ومن هنا جاء تأكيد الإمام الراحل بشكل متواصل على توحيد الكلمة
 والصفّ الإسلامي ، ونبذ الخلافات الجانبية ، والرجوع إلى القرآن الكريم مصدر
 القوّة والعزّة ، حيث قال ﷺ بهذا الصدد: «إن سبب كل المشاكل في البلاد الإسلامية هو
 اختلاف الكلمة وعدم التعاون ، ورمز الانتصار هو وحدة الكلمة وإيجاد التعاون ... كونوا
 جميعاً للإسلام ، وتوجّهوا إلى الإسلام ولصالح المسلمين ، وابتعدوا عن التفرقة والخلاف
 الذي هو أساس مشاكلنا وتخلّفنا» (١٢) .

فالإمام ﷺ يعمل بدقّة ومبدئية لتوحيد كلمة المسلمين ، وإرجاعهم إلى
 القرآن والسنة والعمل على أساس الإسلام . والحج الإسلامي في بعده الاجتماعي
 الكبير والواسع أحد أهم الطروحات ، التي أعلنها الإمام الراحل في مواجهة
 المستكبرين والمتصيدين بالماء العكر ، والحيلولة دون تحقيق أهدافهم المتمثلة
 بفرض سيطرتهم على البلاد الإسلامية ، وبثّ روح الخلاف والتفرقة بين المسلمين ؛
 ليسهل بالتالي نهب ثرواتهم ومصادرتهم .

إنّ البعد الاجتماعي للحج من خلال فكر الإمام الشمولي يعدّ عاملاً واسع
 الأبعاد؛ لما له من دور مهم وكبير في تربية الإنسان على أن يكون تغييرياً لا يقبل
 الواقع الفاسد بشكل مطلق .

فنجده ﷺ يقول: « يجب استثمار هذه الاجتماعات لأهداف الإعلام والتعليمات
 الدينية ، وتوسعة مدار النهضة العقيدية ... » (١٣) .

كما كان يحرص ﷺ كل الحرص في أن يؤدّي الحجّ دوره الكبير في إعداد المجتمع
 الإسلامي المؤمن ، العابد ، الموحد ، الواعي لخطط الاستكبار ودسائس
 المستعمرين .

الهوامش :

- (١) د. زهير الأعرجي، مباني النظرية الاجتماعية في الإسلام، ط ١، ١٤١٧: ٣٥-٣٦.
- (٢) المائدة: ١٥-١٦.
- (٣) توجيهات الإمام الراحل إلى المسلمين، ترجمة محمد جواد المهري: ٢٦٨، ط ١، ١٤٠٣هـ.
- (٤) الرعد: ١١.
- (٥) الحج: ٢٧.
- (٦) مختارات من أقوال الإمام الخميني / الترجمة العربية وزارة الإرشاد: ٤، ١١٤، طهران ١٤٠٢هـ.
- (٧) دور الحج في المسيرة التاريخية، محمد علي حسين: ٤٤، طهران ١٤٠٢هـ.
- (٨) الحكومة الإسلامية: ١٣٨.
- (٩) دور الحج، مصدر سابق: ٣٥.
- (١٠) المصدر السابق.
- (١١) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.
- (١٢) توجيهات الإمام الراحل عليه السلام، مصدر سابق: ١٠٥.
- (١٣) ولاية الفقيه: ١٨٠.